● **المبحث الثانى : طبيعة العلاقات بين الأقلية :**

لاحظنا قبل قليل عمق دلالة قول ابن كثير: «إنما يولى الله الناس بأعمالهم فالمؤمن ولى المؤمن أين كان، والكافر ولى الكافر أينما كان وحيث كان ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى» فهو يدل على أن العلاقات الحميمة تحكمها على جميع المستويات العقائد، وأن العقائد مقرها القلب الذي يتأثر بأفعال الجوارح سلبا وإيجابا ويؤثر فيها، فالعلاقة بين القلب والجوارح علاقة متبادلة، ولذلك نلاحظ أن الربط بين الإيمان والكسب علاقة دائمة فى القرآن والسنة، وفى الأثر عن الحسن قال: «ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى، إن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل»(١).

ولما كانت العلاقات الفردية والدبلوماسية سلوكا حضاريا يطبع بطبيعة الثقافة التى يتمتع بها السالك، وكان رأس الثقافة هو العقيدة التى من شأنها أن تصبغ التصورات والأقوال والأفعال بلونها، فإن العلاقات بين المؤمنين ستسير فى نفس الفلك، والآيات التي سنعرض لها كفيلة ببيان ذلك:

١- قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾

[الأنفال: ٧٢]

٢- وقال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾

[مريم: ٩٧]

هذان النصان يحددان طبيعة العلاقة التى تقوم بين المؤمنين، وهم تلك الأقلية القليلة التى بادرت بالهجرة بدينها إلى المدينة مع رسول الله ﷺ الذى آمنت به فاتبعته وأحبته وسارت حيث سار، وتلك الأقلية التى تولت الرسول ﷺ وأصحابه من المهاجرين فآوتهم ونصرتهم.

---

(١) مصنف ابن أبى شيبة ٦/١٦٣ - ٧/١٨٩.

فالعلاقة بينهم أساسها الإيمان والتقوى والعمل الصالح، إذ هذا هو ما جعل الود بينهم متبادلاً يصدق عليه قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(١).

ولكن التاريخ يخبرنا أن اجتماع المهاجرين والأنصار معًا كان من حيث العدد يشكل الأقلية، بدليل أن أول غزوة كان عدد المجاهدين فيها أقل من ثلث حزب الكفار من قريش وحدها ناهيك عن اليهود والمنافقين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر بالمدينة المنورة، ويدل على ذلك ما حدث من بعد، من ظهور المنافقين الذين حذرت الآيات القرآنية من شر تواجدهم فى الصف الإسلامى، وحرضت الرسول ﷺ على إجلائهم عندما كشفت خطة تنسيقهم مع قريش وكفار مكة عامة للإيقاع بالمسلمين.

إن كل ذلك يبين أكثرية الكفار وأقلية المؤمنين، ولكن الذى سيبين عنصر القوة فى الأقلية المؤمنة مما ساعدها على الغلبة والبطش الشديد بتلك الأحزاب الكثيرة المتآمرة على هذه الثلة المؤمنة هو ما جاء فى الآيات السابقة، وفى آيات أخرى سنذكرها فى حينها، تلك الآيات التى سيتبين منها أن القوة ليست بالعدد ولكن بالعدة النفسية والروحية.

عندما نحلل آية الأنفال السابقة نجدها تحدد طبيعة العلاقة بين أعضاء الأقلية المؤمنة، فهى علاقة يشترط فى ولاء أعضائها الإيمان والهجرة والجهاد فى سبيل الله، بالنسبة لسكان مكة، كما يشترط بالنسبة لسكان المدينة الإيمان والإيواء للمهاجرين ومناصرتهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾.

هكذا تحدد الآية شروط الولاء السياسى والانتماء الحزبى، وهى شروط تقوم على جانبين: روحى ومادى، وهما عاملان متلازمان، سنلاحظ أن القرآن يؤكد

---

(١) مسند أبى عوانه ١ / ٤١.

تلازمهما لبيان طبيعة العلاقة السياسية بين الجماعات الإسلامية، بحيث لا يكفى الإيمان وحده على الرغم من أهميته القصوى، بل لابد من استكمال العنصر المادى متمثلا بالنسبة لسكان مكة فى الهجرة، وبالنسبة لأهل المدينة في الإيواء والمناصرة: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا** ﴾. هكذا يمنع النص بعبارة صريحة أى نوع من أنواع الولاء حتى يتم شرط الهجرة ﴿ **مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا** ﴾ إنما صرامة قوية فى تحديد طبيعة العلاقات وعناصرها الأساسية، تبينها بشكل أوضح العبارة ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٧٥]، فالهجرة شرط للولاء وتحقيق المعية السياسية، فلا يكفى أن تقول أنا معك وأنت لم تبادر إلى الهجرة والجهاد الذين بهما يتحقق معنى قولك أنا معك، ولقد ظل هذا الشرط قائما حتى فتح مكة حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته وانتظم الناس فى مجتمعه، ورفع مبدأ "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل»[1] لا ليلغى الشرط ولكن ليضبطه فى الإطار الظرفى الجديد.

ومن البين الواضح أن مبدأ الهجرة لم يرفع إلا بعد أن اتسعت دار الإسلام لتشمل مكة، مما يبين أن الهدف هو تحقيق الولاء السياسى والانتماء الحزبى البناء، الذى يمنع الجماعة الإسلامية قوية ويعطيها أسباب الفعالية، بدليل بقاء عنصر (الجهاد) وظهور عنصر جديد هو (العمل) كما يحدد ذلك مبدأ «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل».

وهذا الولاء القائم على الشروط السابقة أساسى فى الفعالية، بحيث تصبح الاستهانة به سببًا من أسباب الفتنة كما تحدده الآية حين تقارن بين العلاقات السياسية بين الكفار والعلاقات السياسية بين المؤمنين: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الأنفال: ٧٣]، فالمجتمع

---

(١) فى ظلال القرآن: ٣/١٠/١٥٦/ انظر صحيح مسلم: ٣/١٤٨٧ صحيح البخارى: ٤/١٥٦٧.

الكافر يشكل تجمعا سياسيًا لا يتحرك فيه أعضاؤه كأفراد وإنما ينشطون ككائن عضوى « تندفع أعضاؤه بطبيعة وجوده وتكوينه للدفاع الذاتى عن وجوده وكيانه. فهم بعضهم أولياء بعض طبعا وحكمًا، ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا فى صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلى، لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلى المتكافل أفرادًا، وتقع الفتنة فى الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده، ويقع الفساد فى الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله، ووقوع الناس عبيداً للعباد مرة أخرى وهو أفسد الفساد »[1].

ولأهمية البعد الانتمائى نجد القرآن الكريم يجعل هذه العلاقات السياسية بين قوى المسلمين دليلا أساسيا وبرهانا قطعيا على الإيمان الحق، فإذا لم يتحقق ذلك الانتماء صراحة بكل شروطه فالإيمان فيه دخن أو ضعف كما تبين الآية ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ٧٤].

ومن هنا يتبين لنا عمق الدلالة فى العلاقات السياسية بين الأقليات الإسلامية، بحيث يصبح الولاء للتجمع الإسلامى برهانا على الإيمان، لأن ذلك هو المفتاح الأساسى فى إعطاء الصف الإسلامى على أقليته فعاليته.

فالفعالية كل الفعالية تكمن فى تنمية هذه العلاقات السياسية وفق شروطها وضوابطها، وقد برهن التاريخ بنتائجه الباهرة على أهمية ذلك، لقد « اجتمع فى المجتمع الإسلامى المتفوق العربى والفارسى والشامى والمغربى والتركى والصينى والهندى والرومانى والإغريقى والأندونيسى والإفريقى إلى آخر الأقوام والأجناس، وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة فى بناء المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما (عربية) إنما كانت دائما (إسلامية) ولم تكن يوما (قومية) إنما كانت دائما

---

(١) فى ظلال القرآن : ٣ / ١٠ / ١٥٥٩ .

(عقدية)، ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة وبآصرة الحب، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة فبذلوا جميعا أقصى كفاياتهم وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية فى بناء هذا المجتمع الواحد الذى ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة.. وهذا ما لم يتجمع قط لأى مجتمع آخر على مدار التاريخ»[1].

ولاشك أن تنمية العلاقات السياسية تتحكم فيها عناصر روحية وأخرى مادية كما رأينا، ولكن يبقى الإسمنت القوى الذى يحافظ على طبيعة العلاقات فى المجتمع الإسلامى هو الإيمان، وهو ما تعبر عنه الآيات: ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٣] فهذه الآية من سورة الأنفال نفسها جاءت لتبرز أهمية العقيدة فى تثبيت العلاقات السياسية بين أفراد المجتمع الإسلامى، والفعل (ألفت) بدلالته يدل على تلك الأهمية، لقد جاءت الآية لتبين أن توطيد العلاقات بين الدول الإسلامية لا يقوم على المادة – على أهميتها – مهما كان حجمها ﴿**لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ....**﴾ وإنما يقوم على الطاقة الروحية ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ**﴾..

فالإسمنت الذى ألف بينهم هو حب الله الذى إذا لمس القلب ضعفت أمام قوته كل أسباب التأثير فى العلاقات بعد ذلك، المادية منها والعرقية، كما يبين ذلك حديث الرسول ﷺ فيما أخرجه أبو دود إذ قال: «إن من عباد الله لأناسًا ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى: قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم قال: هم قوم تحابوا بروح الله بينهم على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس»[2].

---

(١) فى ظلال القرآن: ٣/١٠/١٥٦٢.

(٢) أخرجه أبو داود: ٣/٢٨٨ – صحيح ابن حبان: ٢/٣٣٢.

ويؤكد هذا كل التأكيد قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** ﴾ [مريم: ٩٦].

وخلاصة القول: إن العلاقات بين الأقلية المؤمنة تحكمها عناصر أساسية بعضها مادى وبعضها عقدى ولكن المادى يأتى برهانًا ودليلا على العقدى، وهذا ما يفرق بالضبط بين العلاقات بين الأكثرية والعلاقات بين الأقلية المؤمنة، فالأكثرية من جهة العقيدة كافرة ولذلك يصبح العنصر الأساسى الذى يحكم العلاقات بين أفرادها هو المصالح فإذا تعارضت المصالح تدابروا وتناحروا، أما الأقليات المؤمنة حقًا فتحكم العلاقة بين أفرادها وطوائفها ودولها محبة الله ورسوله والإيمان بالبعث وما يرتبط به قبل أن تحكمها الأهداف الزائلة وتربطها المصالح المادية المختلفة، بل إن الإيثار فى المجال المادى سيكون دليلاً على صحة مقومات تلك العلاقة: ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر: ٩]، ولذلك ينفى القرآن العظيم وجود علاقة ودٍّ بين المؤمن والكافر مهما كانت الأسباب، حتى لو كانت صلة القرابة العرقية والدموية: ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ** ﴾ [الحشر: ٢٢].

* * *